# في حق الآخر المختلف

سالم الحاج
salimha32@yahoo.com

X في مقال سابق أشرت الى ان مجرد التغني بالعدالة، هو أمر يحسنه كل احد، ولكنه لا يكفي وحده ما لم تعضده (قوانين ملزمة) تحيله وقائع على الارض.. فحتى عتاة الطغاة والمجرمين لم يكفوا عن ادعاء تحقيق العدالة والبكاء على أطلالها، ولكن واقع حالهم هو الذي فضحهم وكشف زيف ادعاءاتهم!.. وعلى الجهة المقابلة، فان (تطبيق) القوانين، والتبجح بالالتزام بها، دون الالتفات الى نتائج التطبيق وثماره، هو الأخير لن يعدو أن يكون سوى اجراءات شكلية جامدة ، كثيرا ما تكون وجها آخر للطغيان والدكتاتورية..

وقلنا كذلك: ان (الاسلام) جاء وهو يبشر بتحقيق العدالة، ولكنه لم يكتف بالتغني بها، بل حول ذلك الى تشريعات ملزمة، بل وتجاوز ذلك الى أن جعل (الإلزام) نابعا من داخل النفس البشرية ذاتها، فضلا عن رقابة (القانون)، وذلك هو القانون الحقيقي بتعبير (بيگوڤيتج)[1].. ومن هنا فقد كان الاسلام –تاريخيا وواقعيا– اكثر الاديان والمبادئ والفلسفات توفيقا في اقامة مجتمع اقرب الى الكمال، وفي بناء الانسان الصالح – النموذج!.

ولكن، ومع كل ذلك، هل يستطيع ان يزعم احد: ان (الاسلام) هو الحل السحري الذي ما ان ننطق به، أو نعتزم تطبيقه، او ندعي ذلك، حتى تختفي المظالم، وتحل المشكلات، وتدر الارض لبنا وعسلا؟!

ان (الاسلام) هو كالدواء الذي ان وضعته على الرف ولم تستعمله، فلن تستطيع الإفادة منه، وان استعملته حسب الهوى والمزاج، لم تستفد منه كذلك، فلا بد من الاجتهاد وبذل الوسع في الاقتراب ما أمكن من أفضل صيغ التطبيق.. ولن يكون ذلك الا جهدا واجتهادا بشريا خالصا!

ومن خلال هذا المدخل اريد ان ندلف الى الحديث عن قضية طالما شغلت جميع المهتمين بشؤون المجتمع، تلك هي قضية التنوع الديني والثقافي في مجتمعاتنا!. فقد حضرت قبل أيام ندوة طرقت موضوع التعدد القومي والديني في كوردستان، وانعكاس ذلك على الثقافة.. وكانت اجواء الندوة ايجابية تماما، وخرجت منها وأنا اكثر احساسا بضرورة اجراء المزيد من هذه الحوارات بين المسلمين والمسيحيين، وغيرهم..

وفي الحقيقة، فان قضية التنوع هذه (القومي، أو الديني، أو..) هي ظاهرة بشرية موجودة في كافة المجتمعات على وجه الارض، ولا تقتصر على كوردستان أو بعض المجتمعات، ولكن المهم في الأمر هو: كيف يجري التعامل مع هذه الظاهرة؟! فكلما ارتفع مستوى الوعي الاستراتيجي لدى النخبة والجماهير في بلد ما، وكلما تم توظيف (الدين) لصالح الانسان والتعايش السلمي بين البشر، عاد ذلك الاختلاف والتنوع بالقوة والثراء على الجميع..

ولنلاحظ هنا ان الصراع والتناحر والحروب –في تاريخ البشرية القديم والحديث– لم يكن مقصورا على المختلفين –سواء قوميا، أو دينيا، أو..– بل كثيرا ما كان يحدث بين اصحاب القومية الواحدة، أو الدين الواحد.. فللخلافات والصراعات والحروب اسباب عديدة لا يمكن حصرها، ولا تبسيطها، اذ هي متنوعة متشابكة معقدة، كتشابك وتعقيد الحياة البشرية نفسها.. وبالتالي، فانه لا يمكن إلقاء اللوم كله على الاختلاف، فالطريقة التي يتعامل بها البشر مع بعضهم البعض، وأسلوب النظر الى هذا الاختلاف، هو الفيصل، وليس الاختلاف في حد ذاته.. ومن هنا فان النظرة الى التنوع والاختلاف القومي أو الديني او المذهبي عندنا في كوردستان العراق، يجب ان ينطلق من هذه الحقيقة البسيطة، وهي: أنها ظاهرة طبيعية، بل إنها ظاهرة قوة يمكن الاستفادة منها في تعميق التلاحم المجتمعي، وزيادة تمتين الروابط البشرية، وذلك بحسب درجة التطور الحضاري والوعي الثقافي والانفتاح الانساني السائد..

ولنلاحظ من جانب آخر ان الأديان السماوية جميعها انما تنبع من مشكاة

واحدة، وهي تدعو جميعا الى سعادة الانسانية، وتهدف الى ارشاد الانسان وهدايته، وتحمل رسالة السلام والتآخي والتلاحم الانساني.. ومن ثم، فإن كل ما جرى من قتل ودمار وحروب باسم الاديان، انما كان منطلقا من دوافع وأهواء ارضية، ومصالح مادية متناقضة، وليس شيئا من ذلك نابعا من الدين نفسه.. فالله سبحانه هو رب العالمين، وليس رب طائفة من الناس، وهو لم يرسل رسله ليكفر بعضهم بعضا، بل ليتمموا رسالة واحدة.: ﴿ وما ارسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه انه لا إله إلا انا فاعبدون ﴾ الانبياء/٢٥.

ولن نجعل من هذا الحديث مناسبة للكلام عن المظالم التي لحقت بالمسلمين على أيدي الغير (كالحملات التي عرفت بـ(الصليبية)، والاستعمار الحديث، والمعاصر)، فذلك أمر معروف للجميع، كما ان خلفياته معروفة كذلك، وهو ليس موضوعنا على أية حال.. ولكننا سنسأل هنا؛ اذ هو سؤال سيراود البعض حتما بعد المقدمات السابقة: اذا كان الأمر كذلك، فلماذا حدثت المظالم تجاه غير المسلمين في المجتمعات الاسلامية، ولماذا يعامل غير المسلم وكأنه مواطن من الدرجة الثانية، واين هي العدالة الاسلامية التي تتغنون بها، الى غير ذلك من التساؤلات التي تطرح عادة في هذا المجال!؟

ومن مدخل العدالة ننطلق لنقرر في البداية ان المبادئ السامية التي جاء بها الاسلام، في شأن التعامل مع الآخر المختلف، كانت فتحا في تاريخ البشرية، وأمرا له ما بعده، وهي ما يسميه الدكتور (ادمون رباط) بـ(السياسة الانسانية الليبرالية)[٢]، ويصفها بالابتكار العبقري، حيث انه (للمرة الاولى في التاريخ، انطلقت دولة هي دينية في مبدئها، ودينية في سبب وجودها، الى الاقرار في الوقت نفسه بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانهم أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وتراث حياتها، وذلك في زمن كان يقضي المبدأ السائد فيه بإكراه الرعايا على اعتناق دين ملوكهم)[٣]. فالاسلام اذن يوم ان قرر هذه الحقوق للآخر المختلف دينيا، ويوم ان اعترف بديانته، وأقره عليها، ويوم ان جعل اساس علاقة المسلمين بهم قائمة على مبدأ: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾، ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو اقرب للتقوى ﴾، انما كان مبتكرا، ومبادرا، وهاديا للانسانية جميعا.. ولن نسهب في شرح أن أهل الكتاب قد عاشوا بسلام وأمان في ظل دولة الاسلام، على امتداد قرون طويلة، فذلك امر معروف، يشهد له التاريخ، ويشهد له الاعداء قبل الاصدقاء[٤].. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا هذا التوجس، وهذا الاحساس بالغربة، والانعزال عند أهل الكتاب، على الرغم من كل ما يمكن أن يقال عادة عن التسامح الاسلامي تجاه الآخر عبر التاريخ الاسلامي الطويل؟ وعلى رغم القرون المديدة التي عاش فيها اهل الكتاب (وغيرهم) تحت ظل سلطان الحضارة الاسلامية الغالب؟ وعلى رغم ما يمكن ان يقال عادة ايضا عن انفتاح الحضارة الاسلامية، وعدم انغلاقها على نفسها، متجليا بوضوح من خلال اشتراك الجميع –على اختلاف الاديان والقوميات و..– في المساهمة الجادة والايجابية في بناء صرح هذه الحضارة؟!

هل يكمن السبب في ردة فعل المسلمين تجاه المؤامرات المستمرة عليهم من قبل ذلك (الآخر)، ومثال الحروب الصليبية، والعهود الاستعمارية الحديثة والمعاصرة، محطات بارزة على هذا الطريق ولا شك؟! فهل حفرت هذه الحروب اخاديدها في الذاكرة الاسلامية – كما في الذاكرة الغربية– فحملت المسلمين على التوفز والتوجس من هذا (الآخر) غير المحارب الذي يعيش بينهم، والذي هو كواحد منهم؟! وهو ما انعكس بالتالي على هذا (الآخر) فجعله يتوجس بالمقابل، ويتخذ موقفا سلبيا؟.. لا شك ان تراكمات التاريخ تترك أثرها على ذاكرة الاجيال، وعلى ثقافاتهم.. ولا شك أيضا أن ذلك، وغيره مما لا مجال للخوض فيه، هو من الأسباب التي جعلت الواقع يختلف عن المثال، وتركت الباب مفتوحا أمام الذين يريدون الاصطياد في الماء العكر، لكي يلعبوا على هذا الوتر، مستغلين (الاختلاف) ليجعلوه (خلافا) يحققون من خلاله مآربهم، بدءا من القوى الاستعمارية، وليس انتهاء ببعض القوى الداخلية، التي طالما لعبت بورقة الاختلاف الديني، أو القومي، لتحقيق مصالح ضيقة!

نخلص من كل ما سبق، وباختصار شديد، الى ان الاختلاف، الذي هو ظاهرة طبيعية، بل وسنة إلهية، لا ينبغي ان يكون سببا للخلاف والصراعات والحساسيات بين الناس.. وان الاسلام – طالما انه موضع حديثنا– وهو البريء من تهمة التعصب، والذي لم يعرف في تاريخه حروبا دينية، او إكراها على اعتناق الدين، ان هذا الاسلام ينبغي ان يكون الضمانة لتأمين التلاحم المجتمعي المنشود، على عكس ما كان يدعيه البعض من انه لا بد من إلغائه، لكي لا يكون سببا للفرقة والاختلاف بين المواطنين؟!

ولنا عودة الى الموضوع بإذن الله ❐